عدد 17- جوان 2002، ص.165-177

الملامح الباكرة لنشأة الزراعة وتطورها في بلاد المغرب القديم

ملخص

تحاول هذه الدراسة متابعة إشكالية نشأة و تطور الزراعة في بلاد المغرب القديم و المراحل التي مرت بها و الأدوات التي استعملت فيها و كذا المصادر التي أشارت إليها سواء المادية منها أم الكتابية و المواقع التي يحتمل أن تكون قد ظهرت فيها لأول مرة، و هل سبقت الرعي أم كانت مواكبة له؟ و ما هو دور الفينيقيين و النوميديين و كذا الرومان في استغلال الأرض و الاستفادة منها، ثم تطبيق الأساليب العلمية المتوافرة حينذاك في استغلال المزارع و تقسيم الملكيات؟.

و في الأخير يخلص الموضأوع إلى الحث على أهمية الزراعة و دورها في ضمان ترقية المجتمعات القديمة و ذلك منذ فجر التاريخ و حتى الفترة الرومانية في بلاد المغرب القديم.

أ.د/محمد الصغير غانم
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية
قسم التاريخ
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

Résumé

Cette étude porte sur la problématique du début de l'agriculture, les outils utilisés, son évolution, les sources écrites et matérielles à travers les différentes périodes passées en Afrique du Nord, et les sites supposés être cultivés par les hommes pour la première fois.

On ignore si l'agriculture a précédé l'élevage des animaux ou l'inverse. Quel a été le rôle des phéniciens, des numides et des romains dans l'exploitation des terres et les méthodes scientifiques utilisées à cette époque là ?

Pour conclure, cette étude démontre l'importance de l'agriculture et le rôle qu'elle a joué dans l'évolution des sociétés anciennes, depuis la protohistoire jusqu'à l'époque romaine, dans le Maghreb Ancien.

أ- منذ البدء وحتى الفترة الليبية - البونية.

لا نعرف متى بدأت الزراعة بالضبط في بلاد المغرب القديم، وما هي المناطق التي مارس سكانها الزراعة والاستقرار قبل غيرهم ؟ وهل كانت مقترنة بالرعي أو مكملة له ؟ وهل أن فكرة الزراعة كانت ناشئة عن التطور الداخلي المحلي للسكان المغاربة القدماء ؟ أم أنها مستوردة مع الغزاة الأجانب الذين أحتك بهم السكان المحليون سواء عبر حدودهم الجنوبية الممتدة في شمال الصحراء الإفريقية أو عبر المسالك المائية التي كانت تربطهم بأوربا وآسيا.

وسواء كان هذا أو ذاك، فإن سكان المغرب القديم بناء على المصادر المادية والكتابات المتوفرة في المنطقة كانوا قد مارسوا الزراعة منذ فترة متوغلة في القدم (1).

ولعل أول ما يلفت الانتباه في هذا الميدان خلال فترة فجر التاريخ هي تلك الكويرات المثقوبة

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2002.

والتي يمكن أنها قد استعملت مع غيرها لسحق الحبوب Les Boules de Pierre perforées.

فقد عثر على نماذج لها في المواقع الجزائرية العائدة إلى الفترة القفصية والنيوليتية، لاسيما في موقع أمكني بالهجار بالصحراء الجزائرية ورأس سيجلي ببجاية (Cap Sigili) وكهف الأروية بقسنطينة وموقع بوزباوين (Bouzabaouine) بالقرب من عين مليلة والعائدة إلى الفترة النيوليتية (2). وكذا مغارة عين الكرمة بالقرب من تبسة، بالإضافة إلى مواقع القليعة النيوليتية بالوسط الجزائري.

أما الآلة الثانية والتي يمكن أنها قد استعملت في الزراعة فتتمثل فيما يعبر عنه الأثريون ب " مطارق الحفر " (Digging sticks) والتي غالبا ما ينتهي الجانب العلوي منها بكويرة حجرية تساعد على الغوص في الأرض (3).

هذه المعاول البدائية التي لازالت تستعمل في بعض المناطق الإفريقية حتى وقتنا الحاضر، لاسيما عند قبائل البوشمن والهوتنتوت الذين لا يزالون يعيشون على بدائيتهم. وهي تستعمل الآن للحفر عن عروق بعض النباتات والديدان التي يتغذى بها السكان.

وهناك من الباحثين من ينكر استعمال هذه المطارق الحجرية في الزراعة، ويذهب إلى أنها يمكن أن تكون قد استعملت في تقليم وصناعة حب القلائد (4).

يضاف إلى ما سبق ذكره آلة ثالثة لا يستبعد أن تكون قد استعملت في الزراعة، وهي حديثة إلى حد ما إذا ما قيست بالسابقتين، غير أنها تؤخذ كدليل قوي لممارسة الزراعة في فترة ما قبل التاريخ ببلادنا. وتتمثل الآلة المشار إليها في العظام التي عثر عليها في مغارة البوليغون (Polygone) بوهران في السوية العائدة إلى فترة النيوليتي وهي عبارة عن عظام ضلع حيوانات محفورة في الوسط ترى وقد رتبت فيها حجارات صغيرة من السيلاكس استعملت كأسنان لقطع السنابل (5). وقد وصف هذه الآلة العالم دوميرج (Doumergue) سنة 1927 بأنها تتكون من ذراع عظمي وأسنة من حجارة السيلاكس تثبت في حفر داخل العظم المشار إليه.

بعد الاكتشاف السابق بسنوات عثر الباحث الأثري ديبروج (A.Débruge) بدوره على آلة شبيهة بالسابقة في موقع مشتى العربي بالقرب من شلغوم العيد وذلك سنة 1931(6). ولم ينتبه ديبروج للاستعمال المخصص للآلة التي وصفها بأنها عجيبة، إلا سنة 1948 عندما نشر باحث فرنسي آخر وهو ب. كادنة (P.Cadenat) نتائج الحفريات التي أنجزها في كوليمناطة (Columnata) بتيارت حيث عثر هو الآخر على عدة آلات مماثلة لتلك التي وجدت بمشتى العربي، مما أدى بالباحثين الأثريين إلى الاعتقاد بأن الآلة السابقة لا يستبعد أن تكون قد استعملت لقطف السنابل (7).

والملاحظ أن مناجل ما قبل التاريخ كانت قد عرفت وحددت مواصفاتها، لاسيما في مواقع الشرق القديم وأوربا مثل مناجل النيوليتي التي عثر عليها في قرى الفيوم بمصر والنطوفيين بفلسطين، وهي تعود في أغلب الظن إلى العصر النيوليتي بالمنطقة (8).

ومن بين الملاحظات الأخرى التي يمكن أن تساعدنا على تتبع وجود الزراعة في الجزائر ككل والشرق الجزائري على الخصوص هو أنه في سنة 1946 قام المهندسون الفرنسيون برسم خرائط للمنطقة الممتدة ما بين جبل مسعد غربا وتونس شرقا مستعينين

في ذلك بالتصوير الجوي (9). وقد لاحظ هؤلاء المهندسون من خلال الصور التي حصلوا عليها أن منطقة تازبنت غرب تبسة كانت مقسمة هندسيا إلى مستطيلات مؤطرة بأكوام من الحجارة والتربة بلغ علو البعض منها حوالي 0,50 سم، وهي ممتدة ما بين جبل بوزيان ومرتفع الشريعة، وفي بعض الأحيان تتخذ شكل مدرجات في المناطق المنحدرة.

وقد عزز فكرة تخصيص هذه المساحات للزراعة لدى الباحثين وجود مقابر دفن جماعية بجبل المستيري المحاذي للمنطقة المشار إليها، بالإضافة إلى مقابر الدولمن والبازيناس في كل من تروبيا (Troubia) وتافرنت التي وردت الإشارة إليهما في الأطلس الأثري للجزائر (10).

إن وجود وتعدد أشكال مثل هذه المقابر والمساحات المخصصة للزراعة في الجزائر يجعل الباحث يعتقد بما فيه الكفاية بأن الإنسان كان قد استقر في المنطقة ومارس الزراعة والرعي أثناء فترة فجر التاريخ في بلاد المغرب القديم لمدة طويلة.

كما أن الشواهد الأثرية تثبت بأن القفصيين والنيوليتيين الأوائل كانوا قد مارسوا الجمع والالتقاط والاستقرار على شواطئ البحيرات الداخلية، تشهد على ذلك رماديات الماء الأبيض ومشتى العربي وعين الحنش وفج مزالة وكوليمناطة بتيارت (11).

وعليه يمكن أن نستنتج من الملاحظات السابقة بأن ممارسة الإنسان الجزائري القديم للزراعة المنتظمة في السواحل والداخل لا يستبعد أن يعود إلى نهاية العصر النيوليتي وبداية الفترة البونية وهي ناتجة عن التطور المحلي الذي سايره السكان ابتداء من العصور الحجرية وأن فكرتها الأولى تكون قد ظهرت مع تطور الجمع والالتقاط الذي بقيت معالمه ممثلة في الرماديات (12).

وحول الزراعة الداخلية يذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوت، بأن أول من شرع في زراعة الواحات الصحراوية هم الأثيوبيون الذين كانوا قد تعلموها بفضل احتكاكهم بالمصريين القدماء سواء أكان ذلك في الواحات المصرية أم على ضفاف وادي النيل، وكان ذلك حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد (13).

ويضيف هيرودوت في نصوص أخرى بأن المنطقة الصحراوية لم تكن جافة مثل ما هي عليه الآن، بل كانت رطبة المناخ تتخللها طرق تجارية تربطها بوادي النيل شرقا والبحر المتوسط شمالا، وأعالي نهر النيجر جنوبا (14).

ولا يستبعد في رأينا أن تكون القبائل الجيتولية والليبية المستقرة بالصحراء كانت هي الأخرى قد مارست الزراعة في نفس الفترة، تم تلت زراعة الواحات الصحراوية تلك زراعة المدرجات في المناطق الشمالية الداخلية من بلاد المغرب القديم تلتها فيما بعد زراعة السهول بنوعيها الداخلية والساحلية (15).

- الزراعة في الفترة الفنيقية - البونية في بلاد المغرب.

لم يكن الفنيقيون أول من علم المغاربة الزراعة، كما يدعي البعض غاية ما هنالك أنه في بداية الأمر كانوا قد زرعوا بمساعدة المغاربة القدماء السهول الساحلية القريبة من مراكزهم التجارية وذلك وفقا للعادة التي كانوا يعرفونها في الوطن الأم (بلاد

كنعان) (16).

غير أنهم فيما بعد عندما بدءوا يتوغلون في الداخل إلى حد ما اصبحوا يستغلون مزارعهم الكبيرة بواسطة المغاربة الذين كانوا يستقرون في المزارع نفسها (17). وقد برعوا في هذا الميدان حتى ظهر من بينهم علماء كتبوا في ميدان الزراعة. وخير مثال على ذلك نذكر العالم الزراعي ماغون الذي ألف موسوعة تتكون من ثمانية وعشرين جزء وذلك في القرن الثالث ق.م ضمنها تجربته في ميدان الزراعة (18).

وحول هذا الموضوع نقل لنا بلين (Pline XVIII,35) رأي ماغون القرطاجي في ملكية الأرض الزراعية، حيث يذكر " يجب على من يملك قطعة أرض فلاحية أن يبيع منزله في المدينة خوفا من أن يجذبه سكنى هذه الأخيرة فيهمل فلاحة الأرض، وبالعكس من ذلك فإن من يفضل سكنى المدينة ليس بحاجة لامتلاك أراضي في الريف (19)." كذلك ينصح ماغون بالنسبة لزراعة الأشجار المثمرة بأن تعد الحفرة المخصصة لغرس الأشجار في فصل الصيف وتترك للشمس والهواء ولا تغرس الشجرة إلا فيما بين التراجع الخريفي وبداية الاعتدال الربيعي (20).

أيضا يفضل ماغون فيما يخص أشجار الزيتون أن تترك مسافة بين كل شجرة وأخرى تقدر بحوالي 75 قدما أي ما يقارب 22,20 م.

هذا بالنسبة للأراضي القوية (الحمراء والسوداء) وكذا 45 قدما أي حوالي 13 م، بالنسبة للأراضي الخفيفة المعرضة للرياح (21).

وحول موسوعة ماغون تلك نقل لنا بلين الكبير (Pline XVIII,22) " بأن مجلس الشيوخ الروماني كان قد أقدم على عمل مشرف بعد تهديم قرطاجة وذلك بإهدائه كامل كتب مكتبات تلك المدينة إلى الأمراء الأفارقة فيما عدا مؤلف ماغون الزراعي الذي يتكون من 28 جزء، فإنه قرر أن يترجم إلى اللغة اللاتينية ويستفاد منه في ميدان الاستصلاح الزراعي (22). " ومن جهة أخرى يعتقد س.جزيل بأن زراعة القمح والشعير تسبق الفترة الفينيقية في بلاد المغرب القديم. وحول هذا الموضوع يشير المؤرخ الإغريقي هيرودوت بأن سكان ميغارا الليبيين كانوا يزرعون الأرض ويأكلون القمح غير أن ميغارا المشار إليها غير معروفة أو محددة المكان (23). وحوالي نصف قرن فيما بعد أشار نفس المؤرخ إلى أن المزارعين الليبيين والقاطنين في قرى كانت تقع إلى الغرب من نهر يعرف بنهر تريتون وهو الذي يصب في بحيرة تريتون، بحيث لا يستبعد أن يكون المكان المشار إليه هو شط الجريد بالجنوب التونسي (24).

كما يذكر ديودور الصقلي، أنه أثناء معركة هميرا بصقلية سنة 480 ق.م كان املكار قائد الجيش القرطاجي في صقلية قد أحضر كمية من القمح لتمويل جيشه من بلاد المغرب القديم (25).

أما المؤرخ الإغريقي بوليب الذي شاهد تهديم مدينة قرطاجة فيصف بلاد المغرب كالآتي: " يوجد ببلاد المغرب الخيل بوفرة وكذا العجول والأغنام والماعز لدرجة أنه لا يتوفر في بقية العالم مايوازيها (26)... ثم يضيف في فقرة أخرى وذلك لأن القبائل الليبية كانت لا تهتم بالزراعة بقدر اهتمامها بالرعي (27)."

تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ الروماني تيتليف يذكر هو الآخر بأن النوميديين كانوا

قد إنتهزوا فرصة غزو القائد الروماني ريجولوس لبلاد المغرب، فانقضوا على أملاك الدولة القرطاجية ينهبونها، محاولين الإستيلاء على البعض منها. وعندما فشل القائد الروماني في مهمته تلك أمام مقاومة البونيين (28)، فإن القرطجيين أطلقوا العنان لأملكار برقة لمعاقبة النوميديين وذلك سنة 254 ق.م فعمل القائد القرطاجي على معاقبة النوميديين بشدة، بحيث فرض عليهم ضريبة تقدر بـ 1000 تالنت فضية و 20 ألف عجل بالإضافة إلى حجز رؤساء القبائل التي ساهمت في الاضطرابات (29). ويلاحظ أنه عندما أحست قرطاجة بالضنك المالي أثناء حروبها ضد الرومان في صقلية أرسلت قائدها حانون في حملة بالمناطق التي يسكنها الليبيون بقصد جمع الأموال لخزينة الدولة القرطاجية، فاستولى حانون بعد حصار لم يشر إلى مدته على مدينة هيكاتامبيلوس (Hecatombylos) التي ستعرف فيما بعد بتفست (Theveste) بعد أن كان يتلقاه كبار المنطقة حاملين أغصان الزيتون يناشدونه السلم، فاستولى على أموال كثيرة وحجز رهائن قدر عددهم بحوالي 3000 رهينة افتدتهم أسرهم بالأموال واعترفت له بالسيادة على المدينة (30).

وفي نفس السياق يشير المؤرخ جزيل (Gsell) أنه أثناء ثورة الجنود المرتزقة في نهاية الحرب البونية الأولى سنة 241 ق.م كان للقرطاجيين حاكم في مدينة تبسة (31).

ب - الإنتاج الزراعي في فترة الملوك النوميديين.

يشير المؤرخ بوليبيوس بخصال ماسينيسا ومزاياه على قومه في ميدان الزراعة فيذكر " أن ما قام به ماسينيسا في ميدان الزراعة يعد عملا جبارا، فقد كانت نوميديا قبله غير مجدية بالنسبة لسكانها اعتبرت عاجزة من جراء طبيعتها القاحلة على إنتاج المواد الزراعية. إنه هو الأول الذي أظهر بأنها تستطيع أن تنتج كل شيء مثل أية منطقة أخرى... كما أن الفضل يرجع إليه في جعل مساحات كبيرة منها تصبح لها أهمية كبرى(32). "

ومن الأدلة الأخرى التي يمكن أن يستدل بها الباحث على مدى إهتمام العاهل النوميدي بالأرض أنه منذ بداية اعتلائه العرش لم يكتف بمملكته التي حددت معالمها بعد انتهاء الحرب البونية الثانية، بل راح يلاحق القرطاجيين ويفتك منهم أراضي السهول الكبرى بأعالي نهر مجردة والوسط التونسي مدعيا أن تلك الأراضي كانت ملكا لآبائه وأجداده قبله (33).

ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ ديودور الصقلي، أنه عند وفاة العاهل النوميدي ماسينيسا سنة 148 ق.م. كان قد ترك لكل واحد من أبنائه ملكية أرض تقدر بحوالي 10.000 بليذر (Plétheres) أي ما يقدر بحوالي 875 هكتار مع كل الأدوات اللازمة لاستغلالها (34). والغموض الذي يسود هذا النص هو أننا لا نعرف بالضبط عدد المستفيدين من هذه التركة الملكية ذلك لأن بعض الباحثين قد قدر أبناء ماسينيسا بـ 44 أو أكثر من ذلك، وقد توفي البعض منهم قبل وفاته (35).

وهناك نقيشة اكتشفت في بلاد الإغريق تشير إلى أن الملك ماسينيسا كان قد قدم كمية من القمح إلى معبد الإله أبولون بجزيرة ديلوس (Délos) قدرت بحوالي 2796

ميديم (Medime) ونصف بحيث تقدر قيمتها نقدا ب 10.000 دراخما (Drachmes) (36). ومن جهته يذكر المؤرخ الروماني تيتليف إلى أن الملك ماسينيسا كان قد قدم كمية معتبرة من القمح إلى الجيش الروماني أثناء حروبه مع كل من فليب (Philippe) ملك الإغريق وأنطيوخس ملك سوريا قدرت بحوالي مليون بواصو (Boisseaux) (37). وفيما بعد إستمر إبنه مسيبسا في تقديم نفس الإعانة إلى الجيش الروماني (38).

كما أن المؤرخ أبيان (Appien) يذكر بدوره بأن ماسينيسا كان قد أرسل إبنه مساجين (Misagène) على رأس ألف فارس نوميدي وما يماثلهم من المشاة، إضافة إلى 22 فيلا إلى بلاد الإغريق ليحاربوا هناك ضمن الجيش الروماني. وفي نفس الوقت أرسل ابنه غلوسة إلى روما ليقدم مساعدته وخدماته للرومان (39).

وحسب المؤرخ تيتليف (Titelive XLV ,14)، فإن مساجين كان قد شارك في الحرب ضد برسيس (Perses)، وعند عودته من مقدونية قذفت به عاصفة بحرية إلى شواطئ براونديس (Brindes) حيث بقي يعاني هناك من مرض أصابه (40). ويضيف تيتليف في فقرة أخرى أنه بعد انتصار الجيوش الرومانية في بلاد الإغريق أرسل الملك ماسينيسا ابنه مصغبة (Masgaba) إلى روما مكلفا إياه بأن ينقل للرومان رغبة العاهل النوميدي لتقديم الضحايا بنفسه للإله جوبيتر (Jupiter) بمعبد الكابيتول بروما وذلك لأنه نصر الرومان في حروبهم ضد أعدائهم (41).

غير أن مجلس الشيوخ الروماني نظر بعين التقدير والاحترام لقرار الشيخ المسن وما سيجره عليه السفر من أتعاب، فاكتفى بأن ينوب عنه ابنه مصغبة في تقديم الأضاحي.

هذا التصرف الذي صدر من ماسينيسا إن صح ما ذكره تيتليف ! يجعلنا نميل إلى تبعيته للرومان والإقرار بأفضالهم عليه في اعتلائه العرش النوميدي، كما يظهر أيضا مدى تمكن سياسة الرومنة وتغلغلها في الكيان النوميدي، لا سيما في وسط الطبقة الحاكمة في تلك الفترة.

وقد استمر ماسينيسا وابنه مسيبسا فيما بعد في الحفاظ على توطيد العلاقات مع الرومان، حيث يذكر بلوتارخ (Plutarque) أن مسيبسا كان قد قدم بدوره كمية من القمح للجيش الروماني الذي كان يرابط في سردينيا (42). وقد بعث بإبن أخيه يوغرطا على رأس كوكبة من الفرسان النوميدين ليدعم قوة الجيش الروماني المحاصر لمدينة نومانس(Numance) بشبه جزيرة إيبيريا (43).

وعن الزراعة في بلاد المغرب القديم في بداية الفترة الرومانية، فإننا نشير إلى أنه بعد انتصار قيصر في معركة ثابسوس (Thapsus) الشهيرة بالساحل التونسي سنة 46 ق.م على كل من أنصار بومبي (Pompée) والملك يوبا الأول وتشكيله للمقاطعة الرومانية الثانية في إفريقيا، توقع الإمبراطور الروماني بأن إفريقيا الجديدة - Africa) (Nova - كما أسماها وهي تشمل نوميديا الشرقية - ستقدم سنويا للشعب الروماني 1200.000 بواصو من القمح أي ما يعادل حوالي 105000 قنطار (44). وحول هذا الموضوع يذكر المؤرخ الروماني سالوست (Salluste) الذي كان أول حاكم لإفريقيا الجديدة وصاحب كتاب حرب يوغرطة، بأن الأرض الإفريقية كانت خصبة وصالحة

لزراعة الحبوب وتربية الخيول لكنها عقيمة بالنسبة للأشجار، ذلك لأن المياه لا تتوفر فيها إلا في أوقات معينة من السنة وهي تعتمد على الأمطار أكثر من الينابيع والوديان (45).

وبالنسبة للمؤرخ الإغريقي سترابون، فإن محصول الحبوب لاسيما الشعير في إفريقيا يتم جنيه مرتين في السنة، الأولى في الربيع والثانية في الصيف ولا تتطلب زراعة هذا الأخير (الشعير) مجهودا كبيرا في الزراعة. وقد أشار إلى نفس الموضوع كل من أبي عبيد الله البكري وليون الإفريقي (حسن الوزان) في كتاباتهما (46).

- طريقة حفظ الحبوب وتجارتها.

كانت الحبوب تحفظ بعد جنيها في مطامير يختار لها الأماكن المرتفعة بالقرب من التجمع السكاني الذي كان يتخذ نفس النمط أي قمم الجبال والتلال المرتفعة.

وغالبا ما كان المحصول يقسم على الشكل الآتي :

1- يخصص قسم لتمويل الذين عملوا على بذر وجني تلك الحبوب سواء أكان ذلك في شكل أسري أو قبلي.

2- يحفظ قسم بقصد بذره فيما بعد استعدادا للسنة الموالية.

3- أما القسم الثالث فغالبا ما يخصص لمواجهة السنوات العجاف، ذلك لأن الفلاح النوميدي كان لا يثق في الطبيعة المتقلبة، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الروماني سالوست بأن مناخ شمال إفريقيا كان لا يؤتمن جانبه، حيث قد يسود الجفاف لسنوات عديدة متوالية (47).

أما عن تجار الحبوب في تلك الفترة فيمكن أن نصنفهم على الشكل الآتي :

1 - البدو المتنقلون الذين كانوا يبادلون جلود حيواناتهم وشعرها وأصوافها بالحبوب وفقا لطريقة المقايضة المعروفة حينذاك أو يمكن التنازل على بعض الحيوانات نفسها مقابل احتياجاتهم.

2 - تجار المواد المصنعة سواء أكانت قد صنعت في الداخل أو جلبت من الخارج وغالبا ما كان لهذا النوع من التجار وكالات وأماكن مخصصة سواء على السواحل أو في بعض المدن الداخلية.

3 - الوسطاء التجاريون الذين كانت لهم وكالات قارة سواء على السواحل (المدن والمراكز التجارية البونية) أو داخل المدن التجارية النوميدية مثل سيرتا (قسنطينة) وبعض مدن الشرق الجزائري، ثم دوجة وباجة بتونس (48).

أما في الفترة الرومانية فقد تركزت الوكالات التجارية في كل من سيرتا بالجزائر وباجة بتونس وكانت تديرها جاليات إيطالية تعمل لصالح الدولة الرومانية وفي كثير من الأحيان تتدخل في شؤون النوميديين وتوجه سياستهم (49).

- زراعة الأشجار.

إذا كانت زراعة الحبوب قد احتلت مكانة هامة في حياة النوميديين، فإن زراعة

الأشجار المثمرة هي الأخرى كانت قد لعبت دورا هاما في الاقتصاد النوميدي، ومن بين الأشجار التي اشتهرت زراعتها حينذاك نشير إلى أشجار الزيتون والكروم والتين والرمان واللوز (50).

وغالبا ما كانت تزرع تلك الأشجار بالقرب من مناطق التجمعات السكنية وفي المناطق السهلية الداخلية مثل تبسة (Theveste) ودوجة (Dougga) وخميسة، وكالما وتبيلوس ووليلي... إلخ (51).

وفي السهول الداخلية زرعت الأشجار المثمرة ابتداء من خليج السيرت شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا وغالبا ما تكون بجوار المستوطنات والمحطات البونية - الليبية. ويعمل فيها مزارعون محليون ولا تتجاوز طاقتها الاستهلاك المحلي.

- الثروة الحيوانية.

تتصدر الثروة الحيوانية في بلاد المغرب القديم المواشي بأنواعها مثل الأبقار والأغنام والماعز (52) وقد وجدت بقايا عظام تلك الحيوانات بكثرة في المواقع الأثرية القديمة سواء تلك العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ أو الفترة التاريخية، غير أن الأسباب الحقيقية التي أدت بسكان المنطقة القدماء إلى تفضيل مهنة الرعي على غيرها من بقية الحرف الأخرى لازالت مجهولة. ويمكن أن تطرح حولها عدة أسئلة نذكر من بينها على سبيل المثال:

1 - هل أن جفاف المنطقة النسبي وعدم توفر الوديان الجارية بها هو الذي شجع المغاربة القدماء على احتراف مهنة الرعي والاكتفاء بالزراعة البسيطة في بداية الأمر؟ (53).

2 - هل كان للجانب الأمني دخل في ذلك ؟ ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يدافع عن نفسه وعن ثروته الحيوانية التي يمكن الانتقال بها من مكان لآخر عند الإحساس بالخطر، بينما لا يستطيع أن يفعل ذلك بالنسبة للأرض التي تكلفه الصمود في مكان واحد والتصدي لكل الصعوبات والأخطار التي تواجهه.

3 - هل يمكن أيضا أن نعيد اختيار الإنسان للرعي، أنه كان ناتجا عن كثرة الغابات والأحراش الكثيفة التي لا تترك له مكانة للزراعة، لكنها تساعده على الرعي، لاسيما في المناطق الشمالية من بلاد المغرب القديم ؟ (54).

4 - هل كان للجانب التجاري أيضا دخل في تفضيل الرعي عن الزراعة، لاسيما بالنسبة للإنسان المغربي القديم الذي كان يعيش في بداوة تامة. وقد اشتهر المغاربة القدماء بمقايضتهم لجلود الحيوانات المفترسة والأليفة وريش النعام والملح بالمواد المصنعة التي كان يجلبها الفنيقيون من شرقي المتوسط، وبالتدرج استبدل البعض منهم هذه الحرفة بالاستقرار النسبي والعمل في الزراعة البسيطة (55).

هل كان للاحتياجات الضرورية للعيش الذي يتمثل في الغذاء من لحوم وألبان تلك الحيوانات والتنقل وعدم الاستقرار دخل في تنميط حياة الإنسان المغربي القديم. وفي هذا الصدد نذكر بأن الليبيين القدماء كانوا قد ظهروا في رسوم المصريين القدماء وهم

يرتدون ثيابا صنعت من جلود الحيوانات (56).

وبدوره يشير المؤرخ الإغريقي هيرودوت إلى الجنود الليبيين الذين كانوا يحاربون ضمن جيش الملك الفارسي كسركيس (Scerxes) بأنهم كانوا يرتدون جلود الحيوانات.

والملاحظ أن قطعان الضأن التي كانت سائدة في الشرق الجزائري وتونس على ما يبدو من رسومها على الأنصاب النذرية التي وجدت في المنطقة، كانت من النوع الذي عرف بالبارباري (Barbarine) ذات الذنب السميك (57).

وفي هذا الصدد نشير إلى أن نقيشة مارسيليا النذرية - ذات الكتابة البونية - كانت قد أشارت إلى أنواع الحيوانات التي كانت تقدم كأضاحي للآلهة، فذكرت الأبقار والكباش والماعز (58).

وقد إهتم الملوك النوميديون بتربية الخيل لدرجة أنهم أفردوا لها صورا على ظهر عملتهم تقديرا للمكانة التي كانت تحتلها في حياتهم اليومية حتى قيل عليها بأنها كانت من بين معبوداتهم (59).

وحسب المؤرخ سترابون، فإن سيرتا والمناطق المحاذية لها كانت قادرة على تقديم 10.000 حصان إذا كان الملك يرغب في ذلك (60). هذا بناء على الإحصائيات التي كانت تقدم سنويا في فترة الملك مسيبسا.

ويؤكد الباحثون إلى أن خيول الملك مسطنبعل كانت قد فازت في سباق كان قد جرى ببلاد الإغريق وذلك فيما بين سنوات 168 - 164 ق.م (61). مما يجعلنا ندرك الأهمية التي كان يوليها الملوك النوميديون لتربية الخيل وركوبها والتباهي بها زمن السلم والحرب. والدور الذي لعبته فرقة الخيالة النوميدية في جيش حنبعل أثناء الحرب البونية الثانية يعرفه المؤرخون جيدا وهو يعزز ما ذهبنا إليه (62).

وخلاصة القول يمكن أن نقول بأن بلاد المغرب القديم وما كان يعرف منه بنوميديا (الجزائر اليوم) خاصة كان قد عرف الزراعة غير المنتظمة ثم تدرجت بعد ذلك عبر الزمن إلى الزراعة المنظمة منذ عهود متوغلة في القدم تعود بدايتها إلى العصر الحجري الحديث وأن خيراتها كانت تتجاوز الاكتفاء الذاتي، لاسيما في السنوات التي يكثر فيها الغيث، بل ومن أجل خصوبتها وغزارة إنتاجها من القمح الصلب والماشية تعامل مع سكانها الفنيقيون الذين أسسوا مراكزهم ومدنهم التجارية على سواحلها، وقصدها العسكريون الرومان الذين بارك خطواتهم مجلس شيوخهم بمدينة روما لدرجة أنهم نعتوها بأهراء روما للقمح ونفس الخطوات طبقها المستعمرون الفرنسيون باختلاقهم لحادثة المروحة المفتعلة خلال القرن التاسع عشر للاستيلاء على المنطقة.

والسؤال الذي يبقى مطروحا في نهاية هذه المحاولة هو الآتي : هل آن الأوان لنعطي للأرض حقها ونصارح أنفسنا بأننا دولة تملك إمكانيات زراعية أكثر منها صناعية، وبإمكاننا أن ننافس الكثير من دول البحر المتوسط الزراعية في سنوات قليلة، بل ونتفوق عليها بفضل تنوع وتكامل منتجاتنا الزراعية، لكننا لا نستطيع أن نواجهها في ميدان الصناعة إلا بعد وقت قد يطول آمده.

ولعل الشعوب المتفوقة في عالمنا اليوم هي تلك التي استطاعت أن توجه اقتصادها نحو الزراعة وتوفق بينها وبين الصناعة والتجارة، وفي غالب الأحيان تصخر الصناعة

للارتفاع بمستوى المنتوج الزراعي، ذلك لأن من يملك تجويع العالم اليوم هو الذي يستطيع أن يسيطر عليه وأن قنابل الجوع هي أكثر فتكا مما تفعله الأسلحة الحديثة. ولا ننكر دور التكنولوجية الحديثة في هذا الميدان اليوم.

التهميش

1. G. Esperandieu, "Archéologie Africaine et zootechnie", Bull. de la société vétérinaire de zootechnie d'Algérie, Fase. V, 1958 , pp.43-59; G. Esperandieu, "Les moutons du Nord de l'Afrique au Néolithique et durant la période protohistorique", Actes du 1er congrès d'Archéologue d'El Marruecos Espane, Tetouan, 1953, pp.121-142.
2. A. Débruge, "La grotte de Bouzabaouine, Reprise des fouilles", Rec. de Not. et Mém. de la Société archéol. de Constantine, T.L.1916, pp.123-138; DR Marchand, "La grotte préhistorique de l'Oued Kerma", B.S.P.F, T.XXXI, 1934, pp.247-251.
3. F. Bernard, "Fourmis moissonneuses nouvelles ou peu connues des montagnes d'Algérie et révision des Messor du groupe structor", Bull. de la Soc. d'Histoire naturelle de l'Afrique du Nord, T. XLV, 1954, pp.354-365.
4. C. Brahimi, "Initiation à la préhistoire de l'Algérie", Ed. Société Nationale d'Edition (SNED), Alger 1978, p.53.
5. F. Doumergue, "La grotte du polygone", Bull. de la Société de géographie et d'Archéologie d'Oran, T. XLVII, 1927, pp.205-254, p.248.
6. A. Debruge, "Atlas préhistorique ou essai de chronologie sur les diverses industries préhistoriques", Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, T. LX, 1930-1931, p.289.
7. P. Cadenat, "La Station préhistorique de Columnata, Bull. de la Soc de Géographie et d'Archéol, d'Oran, T. LXX, 1948, pp.4-65.
8. R. Neuville, "Les débuts de l'agriculture et la faucille préhistorique en Palestine", Rec. de la Soc. Nebraïque d'Explore et d'Archéol., Palestinienne, B.S.P.F., T.XXXVII, 1940, pp. 201-218.
9. Jean Baradez, "Fossatum Africae", Ed. Arts et Métiers graphiques, Paris 1949, pp. 86 et suiv.; L. Balout, "Préhistoire de l'Afrique du Nord", pp. 14 - 15 et 452-453.
10. St. Gsell, "Atlas archéologique de l'Algérie", Feuille N° 28 , N° 269, 2ed, Alger 1997.
11. L. Balout, "Préhistoire de l'Afrique de Nord", pp. 438-440.
12. J. Despois, "La culture en terrasse en Afrique du Nord", Annales Economie et Soc. et Civilisation, 1956 Paris, pp. 42-50.
13. Miss. C. Caton Thompson, "Kharga Oasis in prehistory", London 1952, p. 166 et suiv.
14. Hérodote, "Histoire", IV, 191, éd. E. Le grand, Paris, les belles lettres 1945.
15. J. Despois, op. cit., p. 41.
16. Strabon, X V III, 5 ; St Gsell. H.A.A.N., p. 194 et suiv.
17. Ibid. T. IV, pp. 2-3.
18. Pline l'Ancien, "Histoire Naturelle", livre XVIII, 35 éd. Rackham Loeb classical library, 1938.
19. St. Gsell, T.IV, H.A.A.N.T. 47; Ibid. T.II, p. 240.
20. R. Billiard, "La vigne dans l'Antiquité", Lyon, 1913, p. 346-7; Pline l'Ancien XVII, 128.
21. Pline l'Ancien, X VII, 93.
22. Ibid, XVII, 80 et les livres XXVII.
23. Hérodote, IV,191.
24. Ibid, IV, 180, St. Gsell, Textes relatifs a l'histoire de l'Afrique du Nord, éd. impri. librairie de l'université, 1915, p.77.
25. Diodore de Sicile, XI, 204, éd. C.H Oed. Fathar 1933. 1967.

26. Polybius I, 29, 7. Trad. W.R. Paton, London, 1922, éd. H.H. Büttner Wobst Reed, 1962-1963.
27. Ibid. XII, 3, 3-4; E.F. Gautier, "Le passé de l'Afrique du Nord", Payot, Paris 1940, pp. 176-178.
28. Titius-Livius, "Histoire Romaine", XXIX, 28, 3, Traduc. Dureau de la Malle.
29. Diodore de Sicile X X IV, 10, 1.
* يبدو أن عدد 20 ألف عجل مبالغ فيها.
30. Diodore de Sicile, Fragman de livre X X IV; G. Camps Massinissa ou le début de l'histoire, Alger 1961, p.54.
31. St. Gsell, H.A.A.N., T. V, p.132; Polybe, I, 67 éd. D. Roussel – Gallimard, 1970.
32. Polybius, X II, 3, 3-4.
33. F. Decret et M. Fantar, "L'Afrique du Nord dans l'Antiquité", éd. Payot, Paris 1981, pp. 100-102.
34. Diodore de Sicile, XXXII, 17; G. Camps, op. cit., p.212.
35. Diodorus I D., XXX II, 16.
36. Inscriptiones graecae, T. XI, 1116; G. Camps, "Aux origines de la berberie, Massinissa ou le début de l'histoire", Libyca, Alger, 1961, p. 199.
37. Titelive, "Histoire Romaine", Liv. XXV, 23, 3.
38. Ibid, XL V, 13.
39. Appien, 67, "Punica, guerre civiles", IV, éd., H White loeb classical, library 1912. Rempr., 1958.
40. Titelive XLV, 14.
41. Ibid, XX IX, 28 - 3.
42. Plutarque, vie de lib. et de E. Grrachus, 31.
43. F. Decret et M. Fantar, op. Cit., p.120.
44. Ibid, p.133.
45. Salluste, "Conjuration de Catilina, la guerre de Jugurtha", XVII - XIX éd., Garnier - Flammarion, Paris 1968.
46. J. Birebent, "Romanae, recherches d'hydraulique romaine dans l'est Algérien", Alger 1962 p. 24, R. Cagnat, "L'arme Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs", 2e éd. Paris 1912, pp.596-611 ;
* محمد الصغير غانم، مقالات حول تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، مط. دار الشهاب باتنة 1997، ص. ص. 38 - 39.
47. Salluste, X VII.
48. Hédi Slim, "Histoire de la Tunisie, des origines à la conquête romaine", éd. Société Tunisienne de Diffusion, Tunis, sans date, pp.178 - 179.
49. محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مط. دار الأمة للنشر والتوزيع1998، ص. ص. 103 هامش 3.
50. G. Camps, "Massinissa ou les débuts de l'histoire", Imprimerie officielle, Alger 1961, p. 80.
51. St. Gsell, H.A.A.N., T.V., éd. Ottozeller Verlag, Osmabruck, 1972, p. 200.
52. Homer, "Odyssée", IV, 85 - 90 ; St. Gsell, H.A.A.N.T.V, p.179.
53. F. Decret et M. Fantar, op. cit., p.11.
54. Polybius, XXX VI, 16, 7 - 8.
55. محمد الصغير غانم، التواجد الفنيقي - البوني في الجزائر، رسالة دكتوراة الدور الثالث في التاريخ القديم والآثار، نوقشت بجامعة الجزائر المركزية سنة 1981، ص. ص. 66 - 67 .
56. G. Camps, "Berbères aux marges de l'histoire", éd. des Hesperides, 1980 p.13, fig.2.
57. Ibid, p. 251.

58. M. Delcore, "A propos du sens spirituel dans le Sacrifice de Marseille (cis1) 165., ou d'origine végétale ? " Semitica XXX III, 1983, pp. 35-39.
59. St. Gsell. H.A.A.N.,T.5, pp.178 - 186 ; J. Bayet, l' "Omen du cheval à Carthage", dans Revue des études Latines, XIX 1941 pp. 166-190.
60. Strabon, X VII, 3, 7.
61. F. Decret et M. Fantar , op. cit., p. 113.
62. Salah-Eddine Tlatli, "La Carthage punique", Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris 1978, p. 180. □

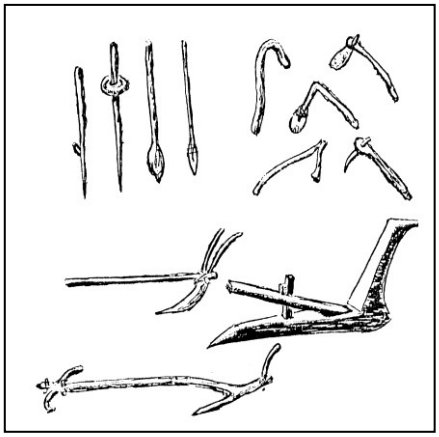

أدوات الزراعة البدائية، بداية من المعول حتى استعمال المحراث البسيط.

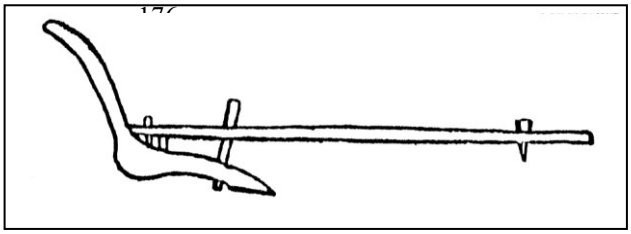

المحراث الأوراسي ذو الذراع الطويل.

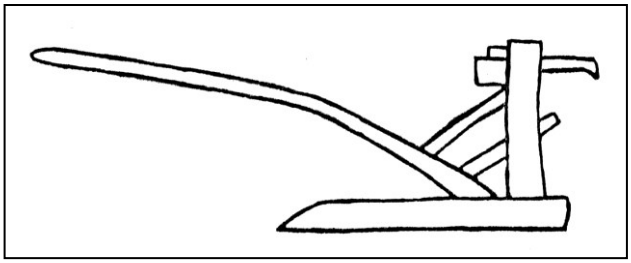

المحراث الروماني البسيط المسنن.